التلقي بين الرؤية التاريخية والرؤية الانسانية في مذكرات القدم التي بقيت لناصر الحسيني

د. فوزي ثعبان منسي الموسوي

- الجامعة المستنصرية_ كلية التربية الاساسية- قسم اللغة العربية

ملخص البحث

يقول (هيرمان هسة) في كتابه(اذا ما استمرت الحرب) ان الأمم يقبض بعضها بخناق البعض الآخر. وفي كل يوم يعاني عدد لا يحصى من الرجال يموتون في معارك رهيبة وسط سيل الأنباء المثيرة.

أتناول في هذه الدراسة مذكرات"القدم التي بقيت" لمؤلفها السيد ناصر الحسيني، وتؤسس كلماتها المفتاحية من: الحرب، الذاكرة، الانسان؛ إذ يستعيد بطل المذكرات حدث الحرب العراقية – الايرانية التي جرت في ثمانينيات القرن الماضي عن طريق تجربته الذاتية في الحرب بوصفه مقاتلا وأسيرا، وتشكل مذكراته سردا إستعاديا يروي الاحداث مع /وبعد انتهاء زمنها، لذا تلاحق الدراسة هذه المذكرات من إشكالية زاويا الاستعادة، بعد ان تحللها في ضوء معطيات زمنها التأريخي، وتكشف عن هيمنة الخطاب الديني العقائدي(بوضعه التأريخي)، الذي يختزل تجربة الحرب في بؤرة اختبار إلهي لإرادة المقاتل(المؤمن)، ويتعالق - بتمثلاته المتعددة المتوزعة في متن الدراسة- مع الخطاب الانساني ، ويغيبه في الوقت نفسه.

تتوصل الدراسة الى ان إستعادة الحدث لم تراعِ المسافة الشاسعة بين ما هو عقائدي وما هو انساني، فلم ينظر صاحب السيرة الى تجربته في موقع إدانة الحرب كنزعة انسانية ترفض العنف، بل احتمى على امتداد المذكرات بايديولوجيا الخطابات التعبوية التي تهدد بانواع من الحروب لا نهاية لها، وبذلك إشترك مع الاخر/ العدو في الرغبة بخوض الحرب والسعي لها.

الكلمات المفتاحية : الحرب، الذاكرة، الانسان.

Reception between Historical Vision and Human vision in “Memoirs of the foot that stayed `there` by Nasir Husaini.

Research summary.

“ Herman Haas” says in his book, if war continues, nations will murder each other. A Tremendous number of men being killed daily from battles with breaking news every hour or so.

I am discussing in this research the memory of “ the leg that remained” for the author Nasser el Housseini with key words: War, Memory, Humane.

As we recover the Iraqi-Iranian war that happened in the ٨٠s, from his own life experience that he lived during this war, his diary consists of all the events that happened during and after the war, and this is why this research follows his diary and analyses it from historical perspective and emphasizes on how the speech at that time was religious, and bias that drags people to fight under the name of God and religion that contradicts his humane speech that was mostly absent.

This research brings you to conclusions about how different ideology and humanity are. Who wrote this book did not look at the war from a humanitarian perspective that is being against war, he was emphasizing the ideological speeches that threatens nations for endless wars, and for that, he participated with the enemy showing his will to draw for a new war.

Key words: War,Memory and Human.

التلقي بين الرؤية التاريخية والرؤية الانسانية في مذكرات القدم التي بقيت لناصر حسيني

د. فوزي ثعبان منسي الموسوي- الجامعة المستنصرية- كلية التربية الأساسية

((سافر! ولكن تذكر ان شظايا القنابل والرصاص

تعاف الشيوخ وتبحث عن الشبان من امثالك))

يوري بونداريف

يجيب يوري بونداريف عن سؤال حول ادبه المتعلق بالحرب، قائلا :((حتى الان وقد كتبت عن الحرب قصتين طويلتين ورواية " الثلج الحار" أرى مع ذلك انني لم اقل عن الحرب الا الشيء القليل))[١].

مرّ القرن العشرون عنيفا على البشرية بحرب عالمية اولى انهت سرديات الاستعمار الكبرى وحرب عالمية ثانية قضت على مضاجع النازية وحرب ثالثة غيرت جغرافيا القوة العالمية حتى مطلع التسعينات، حيث انتهت الحرب الباردة ؛ ليشهد العالم نظام القطب الواحد، اقول؛ ان حروب القرن الماضي القت بظلالها على القرن الجديد، فأطل بدموية اكثر رعبا وتطرفا،اذ اصبحت الحروب التقليدية من الماضي وبات العنف غاية في حد ذاتها. ولم يكن الادب ليتجاوز تلك الاحداث الجسيمة ، فقد انشغلت الرواية الاجنبية بموضوع الحرب لاسيما الحربين العالميتين الى جانب انواع الحروب الاخرى، كما في رواية " الحرب والسلام " لتولستوي، ورواية "الثلج الحار" للكاتب الروسي يوري بونداريف، ورواية "الجندي المجهول" للكاتب الفلندي فاينو لينا التي تطرقت الى وجهة نظر الجنود الفلنديين العاديين تهدف الى تحطيم اسطورة الجندي الفلندي النبيل المطيع . ورواية " في مغيب القمر او أفول القمر" لجون شتاينبك التي تروي سيطرة النازية على قرية نرويجية فكانت رواية لاستنهاض همم الدول الديمقراطية للتصدي للنازية.

وقد تأثر الروائيون بالحروب التي خاضوها بوصفهم مشاركين فيها جنودا او مراسلين صحفيين او مراقبين وكانت لهم مواقفهم مثل جورج اورويل واريش مايا ريمارك الالماني الذي شارك في الحرب العالمية الاولى، وكتب روايتين مهمتين هما "ليلة لشبونة" و" كل شيء هادىء" على الجبهة الغربية".

تذهب الدكتورة يمنى العيد الى ان صورة الواقع ومعناه يجب ان يكونا حاضرين في الادب لانهما يمثلان معا وظيفته فالحقيقي الذي هو من اهم دوافع الوظيفة الادبية ليس صورة الفظائع وحسب بل معناها الخفي، ومنطقه الداخلي، وهي ما يدفع الاديب ((لخلق رؤية له وانتاج وعي به أي اقامة علاقة قادرة على توليد الاحاسيس وتحريك المدارك المختلفة ومخاطبة الذاكرة وحملها على التساؤل))[٢]. والذاكرة البشرية تعتريها جراح كثيرة جراء الحروب اصبحت بموجبها ((الذاكرة المشتركة " ارشيفا يختزن الجراح الرمزية التي تستدعي تضميدها))[٣]. فللحرب عدة اوجه يمكن ان تشكل المركز النابض للقصة في المذكرات، نتساءل على غرار ما يتساءل تولستوي في احدى قصصه الحربية عندما يقول((ما يثير اهتمامي هو حقيقة الحرب. القتل الفعلي، كان اهتمامي بمعرفة بأية طريقة وتحت تأثير اي احساس يقتل جندي آخر اكبر من اهتمامي بمعرفة الطريقة التي كانت تنشر الجيوش في اوسترلتز وبورودينو))[٤].

ان الاهتمام المتزايد لمعرفة الحرب وما الذي يعنيه ان يكون الانسان مشاركا فيها وعلى خطوط المواجهة الامامية؛ يدفع الى الاهتمام بقراءة المدونات الشخصية للجند المشاركين فيها وتأتي اهمية هذه المذكرات انها لجندي شارك في الحرب وتماس مع الاخر/ العدو ووقع في أسره وتعايش معه عن قرب، ومن خلال كونه أسيرا وجريحا اكتسبت تجربته اهمية خاصة لتكون بؤرة يرى من خلالها القبح البشري في الحرب، وانسلاخ الانسان من انسانيته تحت تأثير الرغبة الشخصية والادلجة الفكرية، فكانت القدم التي بقيت في ارض الاسر شاهدا على هذه المذكرات ومعاناة صاحبها ((رجلي التي اتخذت طريقها الى نفايات مستشفى الرشيد العسكري في بغداد أحيانا اتذكرها في ساعات الخلوة اجل استذكر تلك الرجل التي بقيت الى تلك الخطوة المتبقية))[٥]. تلك الخطوة المتبقية انجزت من خلال نشر مذكراته في معتقلات البعث السرية، وهو بنشرها يمنح معادلا موضوعيا لتلك القدم التي اعاقته عن السير، بينما استطاعت الكلمة وتوثيق تلك المعاناة ان تسير في مسيرة الفكر؛ لتعكس بمجملها فظاعة الحروب وبؤسها وخسارتها ومن جهة اخرى تعكس كيف يشارك فيها الجنود بقيمهم المختلفة وكيف يخرجون منها ((قررت انه عندما يطلق سراحي واعود الى إيران فسوف اذهب الى احد مساجد مدينتي والقي كلمة حول ما جرى علينا في مخيمات ومعتقلات البعث السرية))[٦]. وميزة المذكرات التي بين يدينا انها تركز على الافراد الذين وقع على كاهلهم عبء المعركة.[٧]

تصور المذكرات الشباب الايراني المتمثل في شخصية سيد ناصر حسيني (مسلما) بالمقام الاول ومؤمنا بقائده الامام الخميني (رحمه الله) بوصفه رمزا للاسلام، مقابل عصابة من البعثيين يقودهم صدام بوصفه رمزا للشر. ويظهر التعبئة الدينية في شعارات المعركة مثل ((الى الامام ياقوات الاسلام))[٨] ، وكما يرد على لسان الشخصية ((كم كان مؤلما جدا عندما هتف عباس هاشمي باللاسلكي من دون استخدام للشفرة: هنا كربلاء، عمر بن سعد يقرع طبول النصر!))[٩].

في حين كانت هتافات الاخر/ العدو قائمة على استرجاعات عرقية ومرتبطة بفئة محددة وشخص محدد ((تناهت الينا اصوات البعثيين كانوا يهتفون بحماس : بالروح بالدم نفديك ياصدام))[١٠] ، وكما في قول الضابط البعثي ((نحن احفاد القعقاع بن عمرو الذي مرغ انوفكم بالتراب وكان على سعد ابن ابي وقاص ان يبيدكم))[١١]. إن اهم محددات الخطاب هو الاختلاف في وجهة نظر الطرفين، هذا الخلاف الأيدلوجي كان تأثيره واضحا في بيان مواقع الشخصيات ومواقفها من حيث الثبات والتراجع والوضوح .

يعتمد بناء الذاكرة في هذه اليوميات على الذاكرة التاريخية ويؤشر ابعاد هذه الحرب في بعدين عرقي وديني لدى الفريقين وان كانت تمثلات الديني تظهر في شخصية الاسير الايراني أكثر، بينما تكاد تختزل في توصيف العراقي الى (المجوس) الصفة التي تكرر كثيرا على لسان الشخصيات البعثية في الجبهة والسجن والمشفى. فيظهر العدو بعيدا تماما عن اي سلوك انساني ينبع من الفطرة الانسانية ومن صفة المسلم التي يتصف بها ويسترجع في خطابه مصدر للهوية قائم على العروبة ((لعنة الله عليكم يا ايرانيين يا مجوس ... ايرانيين اعداء العرب))[١٢] كما يظهر البعثي غير متمكن من القران وآياته في حين يستلهم اغلب الاسرى الايرانين دفاعهم عن الحرب من آيات القران[١٣].

وحتى مع انتهاء الحرب تظل معاملة العدو سيئة؛ لتعكس خلوه من الجانب الانساني والفراغ الروحي والعطب الذي تشتمل عليه بسبب ذاكرة الماضي ((قال هادي كنجي للمضمد: لقد انتهت الحرب وهذا مصاب يحتاج الى علاج، في ايران لا يفرقون بين جرحانا وجرحاكم في تقديم العلاج اللازم))[١٤]. حتى ان بعض الاسرى الجرحى يفقد حياته بسبب اللامبالاة بمصيره من قبل العدو ((عندما كنا نتوسل للمضمد حول علي وحاجته الى المغذي كانوا يرفضون بشدة بحجة ان المغذي محرم على الاعداء))[١٥].

وفي حدث مهم ترصده المذكرات هو اعلان نهاية الحرب العراقية – الايرانية التي دامت ثمان سنوات، نلحظ تاثير وجهة النظر المختلفة لمحددات الخطاب للطرفين، فهي تمر بوعيين مختلفين يعكس قوة الخطاب لدى احدهم، وضعفه لدى الاخر، فحزن سيد ناصر والاسرى الاخرين بقرار انتهاء الحرب يشكل تساؤلا مهما لدى العراقي / العدو الذي يصفه سيد ناصر بالبعثي على امتداد المذكرات، اذ لم نقف على شخصية واحدة عراقية كانت حزينة بسبب انتهاء الحرب ((شعرت بصدمة قوية وغمرني حزن عميق كل وجودي كل رفاقي ايضا

شعروا بالحزن وسادتهم حالة من الوجود وبهت الدكتور والمضمدون لرؤية هذا المشهد كان يتصور اننا سنفرح قال بدهشة : ماذا دهاكم؟)) [١٦].

يصور التصرف المختلف بين الجانبين الموقع الذي يقف فيه كلا الفريقين فبينما يراها الايراني معركة مفتوحة من وجهة نظره الديني، او كما يصورها سيد ناصر مرحلة لخلق الانسان الرباني ((لا ادري باي لغة يمكنني ان افهم العراقيين ان جبهات الحرب بالنسبة لنا كانت مصنعا عظيما لانتاج الانسان الالهي والرباني)) [١٧]. كانت نظرة العراقي قاصرة على عودة الاسرى العراقيين وايقاف نزيف الدم الذي اودى بالكثيرين، وحتى البعثي الذي صوره سيد ناصر من منطلق قومي لم يعلن بشكل واضح في المذكرات عن رغبته بادامة الحرب رغم ان مشروع البعثي كان احتلال ايران باكملها. فالراوي اذن ينظر ((الى الشخصية التي يمثلها اما من مسافة النظرة التاريخية او من مسافة النظرة الالهية، اي نظرة الخلود، ويقحم في حكيه تعاليا يتطابق معه في نهاية المطاف)) [١٨]. ولكن هذا التعالي له ما يبرره وهو قوة الخطاب المحتمي به وتجليات هذا الخطاب في نمو الروح الانسانية و قصص التشارك وروح الفريق واخلاق الاسلام وقيمه خلال الحرب والاسر. [١٩]

ان قوة الخطاب الديني تفوقت حتى على الخطاب العسكري لدى الايرانيين((كان السيد محسن قد اصدر اوامره لقيادة اللواء بالانسحاب ولكن رفاقنا فضلوا البقاء والاستبسال في المقاومة لقد اصر الجميع على الصمود)) [٢٠] ، وهذه الصورة التي يرسمها سيد ناصر لصحبه وايمانهم بقضيتهم تتجاوز القواعد العسكرية التي تستلزم تنفيذ الاوامر فيدفعهم الخطاب الديني الى القتال لغرض العقيدة ((اعرف تريدون مني الا اتقدم الى الامام ! لا تقلقوا لقد اوكلت امر بناتي الى فاطمة الزهراء)) [٢١]. لذا فقد عززت المذكرات وجود عقيدة مشتركة لدى كل الجنود والقادة اسسها الخطاب الديني وذاكرة ملحمة الطف فكان تصوير الحرب مع العدو بوصفه معركة الحق ضد الباطل والخير ضد الشر [٢٢]، وهي خطابات مطلقة وعميقة لا يمكن ان تنجز الا بانهاء العدو، او بالاستمرار في مقاومته لبناء الروح الجهادية وقد ظهر صوت المعارضة والجواسيس ضعيفا في النهاية اذ انتهى من خلال فشل حملة " ضياء الخالدين " لمنظمة رجوي [٢٣]

في المقابل كانت الجهة الاخرى وحسب ما يتضح من تصوير خطاباتها ترتكز على ذاكرة تاريخية استلهمتها من الماضي وتمترست بها في انشاء خطاب الحرب وترسيخه في وعي جنودها، وكانت هناك معارضة خفية لهذا الخطاب الذي دخل البعثيون به الحرب تمثل من خلال جملة من المواقف والاحداث التي تعاطفت مع الاسرى بدافع مذهبي او انساني، رغم ان اغلب اليوميات تاسست على ترسيخ صورة نمطية للسجان والجندي والضابط البعثي ومن خلالها جرى تمييز صور غير نمطية لعدد منهم في صورة التعاطف الانساني كما في شخصية ابراهيم وقاسم واغلب الشخصيات القادمة من جنوب العراق فسلط المذكرات الضوء على العراقيين وموقفهم من نظام البعث الحاكم عليه.كما في شخصية الحارس توفيق احمد وشخصية ضابط الاستخبارات سعدون فياض وشخصية غانم حسان وعبد الجبار [٢٤]، فكانت بعض الشخصيات الايجابية ((كان قاسم انسانا طيبا متصالحا مع من حوله لا مكان في قلبه للحقد والضغينة من اهالي مدينة الكوت)) [٢٥] ، واخرى تعاطفت مع سيد ناصر بسبب الحالة الصحية المشابهة((احضروا لي عكازتي صباح هذا اليوم، اعادوها الي، لم اعرف الشخص الذي اخبر الملازم حميد انني بدون عكازة ثم عرفت انه دكتور مؤيد ... وقد تفهم الملازم تصرفي وتفهم معاناتي لان احدى ساقيه خشبية)) [٢٦] وكانت ازاء هذه الشخصيات شخصيات السجان النمطية كما فعل وليد الذي امعن في تعذيب الاسرى وحامد ((قال حامد كل واحد منكم يسكب بوله على راسه)) [٢٧]. وبشكل عام كانت اغلب الشخصيات المعارضة لخطاب صدام والبعث ضعيفة ومهمشة نالت تعاطف الاسرى ((قال محمد كاظم : يا لخيبتي كنت اظن ان هؤلاء سوف يعاملوننا بلطف بعد بتر ارجلنا انظر ماذا يفعلون بجنودهم ؟ انا حزين لانني اسأت في كلامي معهما)) [٢٨].

ومن الجدير بالقول انه رغم محاولة الشخصية اضفاء البعد القومي والعروبي على البعثيين وتمسكها بخطابها الديني الا انها تمرر وعيا لبعض الاسرى الايرانيين يصلون في جدالهم الى اختزال الانسان الافضل بالايراني تحديدا ((- نحن الذين اجبرناكم على اعتناق الاسلام بسيوفنا/ قال محمد كاظم : اعتقد انك تراجعت خطوة الى الوراء واذا ما بقيت تتراجع خطوة خطوة فسوف نكشف ان الايرانيين اليوم هم افضل عباد الله بعد عصر النبي ص)) [٢٩] وهي نظرة لا تقل خطرا عن نظرة القومي الذي يحتفي بالعروبة، ومع ذلك فان هذه

الخطابات تبدو طبيعية لانها محكومة بسياقها التاريخي وبظرفها الخاص (المعركة والاسر) التي تحتاج الى خطاب متماسك وتعبوي لمواجهة الاخر .

ان احد اهم اسباب الحرب هي النزوع الى نيل الاعتراف وهذا ما وقعت به الشخصية وهي ترصد حدث نهاية الحرب؛ لانها كانت تنزع الى الاحساس بنشوة (بلوغ الانسان الى مرحلة الانسان الرباني) وتحت تأثير هذه اللحظة لم تمنح الشخصية مساحة مهمة لبيان فظاعة الحرب، فالحرب حدث ترفضه الانسانية حتى مع تبني المنظور الديني لقدسية الحرب وعدالتها، ويتضح ذلك من محاولة قسر الشخصية الفضائل المعنوية والجهادية في مخبر الحرب((صحيح ان الحرب ليست امرا ايجابيا في ذاتها ولكن كان لحزننا سبب اخر ...لم يكن حزننا لنهاية الحرب بل لنهاية كل تلك الفضائل المعنوية والروح الجهادية والثورية))[٣٠] ويغفر للكاتب حرصه على تقديم حكاية بشرية واقعية لجنود عاشوا تجربة مباشرة مع العدو فمن الطبيعي ان تكون الروح المعنوية هي ما يسعى الكاتب لإبرازه .[٣١]

لذا ففي استعادة هذه التجارب يمكن للسيرة الذاتية التي اندمجت في الوقت نفسه بسيرة جماعية، بعد ان تترشح من ضغط اللحظة التاريخية والادلجة التي التف بها خطاب الشخصية ان تتحول الى لحظة انسانية وادب احتجاج ضد العدو الذي يعادي الانسان على خلفيته الفكرية او الدينية او العرقية .

تتأتى ميزة تحويل التجربة الشخصية والتاريخية الى رؤية انسانية من نقاط مختلفة في الارتفاع وهو ما يمنحها سعة الرؤية، في حين كان المنظور الذي كتبت احاديا اتخذ معياره مسبقا ونمط الاخرين تحته، حتى بدا صوت سيد ناصر ومن يمثله صوتا واحدا ينظر للحرب على انها دفاع مقدس ولم تتطرق الى نظرة انسانية للحرب من وجهة نظر الشخصية . هذه النظرة التي نبحث عنها نلمسها في روايات عالمية كرواية "الثلج الحار" ليوري بوندرايف التي رصدت تطورا في وعي الشخصية الرئيسة رغم عجزها عن اعلان صوتها امام طموح الابن الفتي للحرب او امام قيادته العليا ((كان بيسونوف يرى في ضوء مختلف بعض الشيء ما بدا لابنه الان واضحا وبسيطا، وما اثار بهذا الشكل تلهفه للحياة المستقلة الجديدة، وللرفقة القتالية، والهجمات المقدامة والمظفرة دائما بالطبع. لقد كان يعرف جيدا أي شيء هو ميدان القتال، أي قبح يتسم به الموت في الحرب احيانا))[٣٢] .

فالوعي الذي يدخل به سيد ناصر الحرب هو الوعي نفسه الذي يخرج به فلم تكن الحرب إلا لإثبات قيمه السابقة وتأكيدها فتجربة الاسر كانت تنضم الى ذاكرة الجبهة في تماهي الاحساس بمحنة حملتها الذاكرة لمصاب ال البيت ((إن محنة الاسر ستجعلنا ندرك ذلك كله))[٣٣] .

في حين يبدو العراقي وهو يدخل الحرب ويخرج منها فرحا بنهايتها تأكيدا على مراجعته لموقفه السابق ازاء مشاهد الموت والخسارة التي عاشها الفريقان، وهذا يدل على مدى قوة الخطاب المؤسس في وعي المشاركين فيها، فبينما كان الخطاب القومي ضعيفا، كان الخطاب الديني تحت مفهوم حرب الدفاع المقدس الممتزج بالقومية قويا كفاية؛ ليحافظ على تماسك الاسرى رغم ضعف الارادة الشخصية لبعضهم، وكان التركيز على التعذيب والاستشهاد مناطق رخوة لادامة الاقتناع بضرورة الحرب ؛ لذا جاءت اهمية هذا الشكل الادبي ليعرض تلك جميع تلك الاشارات فـ((اغلب السير الذاتية تكون ملهمة باندفاع ابداعي، واسع الخيال نتيجة لذلك، يدفع الكاتب الى عدم الاحتفاظ من احداث وتجارب حياته الا على تلك التي يمكنها ان تدخل ضمن بناء نموذج مبنين ويمكن ان يكون هذا النموذج شيئا يتجاوز الفرد استدرج هذا الاخير الى التطابق معه او يكون ببساطة ترابطا لشخصيته ومواقفه))[٣٤] .

وثمة تناقض يكشفه سيد ناصر من خلال يومياته عن احد الضباط البعثيين الذين عذبوا الاسرى فـ((عندما سمع الضابط البعثي كلمة يزيد تميز غيظا ظن ان سيد علي صالح يشبههم بيزيد))[٣٥] السؤال لماذا اغضبه ؟ كيف يمكن للبعثي المتبني لخطاب العروبة والمحتفي بامجاد قومه ان يغضب من التشبه باحد رموزه؟ هذا التناقض لايكشفه سيد ناصر ولا يقف عليه مع انه يشخصه في سلوك الضابط البعثي، ومما لاشك فيه ان ممارسات هذا الحزب الفاشي قد اثقلت الجميع بمصائب ومحن عاشها الشعب والاسرى الايرانيون وعاشها قبلهم وبعدهم العراقيون .

ان تلقي النص في محيطه الخاص واشتراكه مع الذاكرة الجماعية يشكل مخبرا جيدا لاعادة رفد مفهوم الجماعة الاسلامية وتماسكها؛ لكنه يحجم اثر هذه الماساة الانسانية ويحجم فاعليتها لاسيما اذا ما استعدنا قراءتها ؛ لنؤكد دموية نظام حاكم بدا وكانه يضطهد الشيعة ويحارب الاسلام والحال انه قتل من العراقيين باطيافهم المختلفة ما قتل .

خاتمة : التذكر ... والنسيان

ان استعادة قراءة هذه المذكرات في سياقها الظرفي الحالي والامة الاسلامية تواجه خطر الانشقاق على نفسها عن طريق العنف وبروز اصوليات تستند الى محتوى ضعيف ((لا يستخدمون ذهنهم الا لتبرير مظالمهم ولا يستعملون اللغة الا للتستر على افكارهم))[٣٦]. يوجب ذلك اعادة قراءة سرديات الاسر ودراستها بشكل دقيق لنقف على مدى تاثير الظرف في خلق استيهامات ربما تقود الى تكريس الكراهية كخطاب اقصائي ينبثق على حساب الخطاب الانساني الجمالي الذي يؤمل ترويجه. وهو مايشير اليه المؤلف في الاهداء في بدايات المذكرات ((فكل ما جرى علي لم يكن الا جميلا))[٣٧].

مفترق الماضي والحاضر ... بين القدسي والدنيوي

سرديات طائر الفينيق

تقول الاسطورة ان هذا الطائر يحترق في النار ومن رماده ينبعث طائر فينيق جديد . تشكل مرحلة الاحتراق تحديا ضروريا للولادة الجديدة . ومذكرات " القدم التي بقيت" لمؤلفها سيد ناصر حسيني ، التي عرّبها الروائي كمال السيد تمثل بموضوعها دورة حياة جديدة لمقاتل شاب عاش لهيب الحرب ووقع اسيرا لدى العدو ، ومن رماد الاسر والمعاناة ومواجهته للحظات العذاب والمرض ومرأى النهاية انبعث بولادة جديدة وكتب هذه المذكرات وثيقة صادقة على تجربته .

تزايد الاهتمام بادب المعتقلات وسرديات السجون والاسر في نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحادي والعشرين جرى في سياق دراسات ما بعد الكولونيالية التي اهتمت باستعادة الاصوات المهمشة والمقموعة؛ لتعيد قراءة التاريخ وتغير من منظور القوة الاحادي الذي رويت به. لذا فان جانبا مهما منها ركز على يوميات العنف الممارس ضد السجناء والاسرى[٣٨].

ينتمي النص الى ادب السيرة الذاتية التي جاءت على شكل يوميات شكلت مذكرات خاصة لشخصية سيد ناصر حسيني وتحديدا منذ اشتراكه في معركة تحصينات الخندق في جزيرة مجنون قبل انتهاء الحرب العراقية – الايرانية وكانت اليوميات التي تحدد بشكل يعلو اغلب فصول الكتاب الستة عشر بتحديد اليوم والشهر والسنة شكلا منتظما للمذكرات الشخصية ؛ لذا فان سيرة ناصر الحسيني وردت بشكل يوميات شخصية وهي ما يطلق عليه "((Journal intime/ Personal Dairy)) ونعني به ((جنس ادبي متعلق بالسيرة الذاتية ، فيه يدون انا الراوي ، بشكل منتظم ويومي الاحداث التي جرت له في حياته بشكل يومي ، ومن هنا جاء اسم " كتاب اليوميات diarists"))[٣٩]. وقد شاع هذا الشكل من الادب وارتبط في الحقب التي شغل الانسان فيها بالتساؤل عن مصيره[٤٠]. وفي الوقت نفسه فان اليوميات الشخصية للسيد ناصر الحسيني لم تكتف برصد الاحداث اليومية بقدر نزوعها الى تقديم مشهد تاريخي وذاكرة تاريخية للحرب فاتسع اطار السيرة بدخولها الى حيز المذكرات التي تعني ((قصص وسرد لاحداث تاريخية مهمة كتبها الكاتب بعد ان كان مشاركا هو نفسه في صنع هذه الاحداث. ويمكن ان تتعلق بذكريات يرويها الكاتب ، وهي تتعلق به او مرتبطة به))[٤١]. وان اللجوء الى الادب لتدوين واقع مؤلم يعكس رغبة ((الافصاح عن حقائق اعمق . كان يسعى لان يكون اشد واقعية))[٤٢].

تتوزع المذكرات على ستة عشر فصلا تروي يوميات الجبهة والاسر والعودة الى الوطن في (٨٠٨) يوما تبدا من ٢٤ حزيران عام ١٩٨٦ وتنتهي في ١٨ ايلول عام ١٩٩٠ ويتخلل سرد اليوميات استرجاعات لتواريخ اقدم هي تاريخ الطفولة والشباب في الوطن وذكريات العائلة التي جاءت لتقدم تعزيزا للمفارقة بين النماذج التي عاش السيد ناصر الحسيني معها من (البعثيين). وقد اعتمد الكاتب على (التذكر ، الكتابة) لبناء نصه وبيان مدى الحاضر المازوم للشخصية وقت كتابة اليوميات ، فكان التذكر استراتيجية لاستعادة الماضي

الايجابي في الوطن الذي نتعرف من خلال احداثه على احساس الفرد بوجود وطن يحميه ويستحق النضال لاجله. فيما شكلت الكتابة قيمة وغاية اراد من خلالها الشاب سيد ناصر ان تكون وثيقة تدين الممارسات السلبية بحق الاسرى في معتقلات البعث كما ان الكتابة مثلت وسيلة للمقاومة في مرحلة يكون فيها الانسان ازاء الموت[٤٣].

لا تقل تجربة الاسر عن تجربة الاستشهاد في انها تضع صاحبها ازاء قيم الفضيلة الشجاعة والايثار والتضحية وهو الامر الذي يترشح من يوميات المعركة والاسر على الرغم من وقوع صاحبها تحت وطأة الاحساس بالفارق بين الاسر وبين الشهادة كقيمة عليا حاز عليها اخوه (سيد هدايت)او زملاؤه ، وظل هذا الشعور مرافقا للشخصية حتى نهاية المذكرات كما يتضح في مقدمة الخطبة التي القاها سيد ناصر بعد عودته من الاسر موجها رسالة الى روح الامام الخميني الذي غادر الحياة قبل عودتهم من الاسر ، فاعتذر فيها للامام معللا رحيله بعدم رضاه عن ادائهم في الحرب ربما.

اقول ؛ ان الفضائل كالشجاعة تتحدد من من خلال ((حالة داخلية للشخصية يتم بناء عليها القيام بالعمل ... فالفضيلة سمة شخصية تعبر عن نفسها في الاختيار))[٤٤]. وخيار الشخصية بكتابة يومياتها والنفوذ الى لحظات ضعفها وقوتها ينم عن شجاعة الاعتراف وشجاعة الموقف في اعلان الكلمة فـ ((العادات التي يحتاج رجل الفضيلة لاكتسابها هي " العادات التاملية"))[٤٥].

كما تبدت الشجاعة في تقدير المواقف عند التعامل مع العدو ففي كثير من مواضع المذكرات كان الراوي / الشخصية يعتمد تقنية الحوار الخارجي والداخلي في الان نفسه فكان الحوار الخارجي معبرا عن لغة ذات اشارات ترميزية وكان اللجوء الى لغة الحوار الداخلي لبيان موقف الشخصية من الاحداث التي يخشى الافصاح عنه لاسباب كثيرة ؛ منها عدم رغبته في ايذاء زملائه او لتقديره تفاقم الوضع الى الاسوأ او لحماية شخصياتهم القيادية العليا، ومهما يكن من سبب فان طريقة تمثل الحوار كان ينم عن فضيلة الشجاعة ، التي عرجنا اليه سلفا لانها كانت في تلك اللحظة الحرجة متشبثة بمسافة الخيار وهو ما يشير اليه صاحب كتاب الاخلاقيات والحرب اذ يقول ((في المواقف الخطرة جدا لا يختار الرجل الشجاع ان يتجاهل الخطر ويتصرف بطريقة متهورة، كما انه لا يسمح للخوف ان يشله ويجعله يتصرف بطريقة تنم عن الجبن ، فمن خلال تجنب كل من النقيضين واختيار ما هو في المنتصف يختار التصرف الشجاع الذي يمكن القيام به))[٤٦].

- **الجسد بوصفه ذاكرة تاريخية**

اشتغلت المذكرات على موضوعات كثيرة كان من ابرزها – بلحاظ العنوان – هو الجسد الذي مرت من خلاله مفاهيم المقاومة والموت والشهادة والبطولة ، اذ يؤسر سيد ناصر على طريق الخندق بعد اصابته في قدمه ومن ثم يساق الى السجون العراقية ويشهد من خلال مذكراته اشكال التعذيب الجسدي، فمن خلال القدم تتشكل ذاكرة جديدة للشاب الاسير في معتقلات البعث ويصبح قطع القدم معادلا لبقاء قدم الوطن ثابتة، فتكون ذاكرة اليوميات بؤرة تتنامى فيها الاحداث ونتعرف فيها على وعي الشخصية وخلفياتها الدينية والثقافية ولا تختفي هذه الساق تماما من السرد بعد بترها اذا تصبح موضعا لاستدعاءات الذاكرة كما نجد في استرجاع ذكرى شهادة سيد هدايت شقيق سيد ناصر وكيف انه كان يرفض الاسر ((في ظلمة الزنزانة وفي ظلمة الليل البهيم تداعت في ذهني كلمات شقيقي الشهيد قلت في نفسي من حق هؤلاء البعثيين ان يقطعوا ساقي الاخرى))[٤٧]فكانت الساق وسيلة للتعبير عن مدى فظاعة العدو. كما ان الساق تعد موضعا يلتقي فيه الدنيوي بالالهي اذ تصبح الساق ذخيرته لدى جده (الرسول ص) في الاخرة[٤٨]. وفي هذا الموضوع يلتقي الدنيوي بالمقدس لترتفع قيمة هذا الجزء المبتور من الجسد وتشكل بداية جديدة للانسان الرباني وللوطن المحرر . كما ان هذه الساق رصدت مفارقات انسانية مؤلمة ((كانت لحظات فرح تغمرني ها انا احرك ساقي المبتورة دون ايما الم ...اليوم هو اجمل ايام حياتي))[٤٩] هذا الالم الذي يتساوى التخلص منه مع الجمال يصور تحمل الشخصية حتى ان سعادته ببترها تقترب من جملة اخرى ترد فيها وصف افعل التفضيل بعد عودته الى الوطن ((امضيت اجمل الايام الى جانب اخواتي))[٥٠]. ومثل هذه المقابلة جرت في استرجاع الشخصية لحادثة اصابة قدمها في احدى المعارك وكيف انها تعالجت في الوطن بطريقة انسانية وكانت محاطة بالاهل وبالاحترام .

لقد عبر الكاتب بالجسد عن فكرة الحرب التي دخلها متسلحا بعقيدة واضحة دافع عنها حتى النهاية ((... لقد بقيت ساقي في بغداد حتى لا يبقى شبر من ارض ايران تحت بساطيل البعثيين، لقد داس البعثيون على ساقي الجريحة حتى لا تداس كرامتنا ... ان دعوات امتنا هي التي هزمت صداما فاذله الله سبحانه وتعالى ونصرنا عليه))[٥١].

واذا ما كان من كلمة ختامية يجب ان تقال فهي ان مسلسل اذلال صدام لم ينتهِ بنهاية هذه الحرب وانما كانت نهايتها بداية اخرى دفع ثمنها صدام ومازال العراقيون يدفعون ثمنها خراب الوطن ((في كل مكان لا احد غير الضباع والغربان والطوفان المتصاعد...هذا هو الوطن الذي كنت تريده منذ وطأت روحك ارضه نعم ارض قاحلة بلا حياة او بشر الا من عويل ونعيق وخواء وطن من الموت))[٥٢]

هذا هو الوطن الذي حكمه صدام وشتان بين ساقين قطعت الاولى في بغداد للحفاظ على كرامة الوطن البعيد بينما دفعت الثانية في بغداد ساقها ثمنا لا لشيء سوى تركة ثقيلة لم يعد يتحملها العراق ((اقول لنفسي : تعلم منها ، وانس البلد ! لكن المشاهد تحز صورة الحاضر كالشفرة: نار ودخان ورجل مبتور الساق يصرخ طالبا نجدة . / - اعرف هذا الرجل !))[٥٣]

الهوامش

(١)- الثلج الحار، يوري بونداريف، ترجمة غائب طعمه فرمان، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٤: ٤
(٢)- فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، يمنى العيد، دار الاداب – بيروت، ١٩٨٨: ١٠٥-١٠٦.
(٣)- صورة الانا والاخر في السرد، د. محمد الداهي، دار رؤية، القاهرة، ٢٠١٣ : ٨٥.
(٤)- نقلا عن كتاب حكاية الجند، الحرب والذاكرة والمذكرات في القرن العشرين، صموئيل هاينز، ترجمة فلاح رحيم، دار التنوير للنشر، جامعة الكوفة، العراق، ٢٠١٥ : ١١
(٥)- القدم التي بقيت مذكرات سيد ناصر حسيني في معتقلات البعث السرية ، تعريب كمال السيد ، مطبعة انوار الرسول الاعظم (ص)، الجمهورية الاسلامية الايرانية ، ٢٠١٠ : ٢٤٧ .
(٦)- م.ن:٦٣٦
(٧)- ينظر : حكاية الجند : ٦
(٨)- القدم التي بقيت:٣٩
(٩)- م.ن:٤٠
(١٠)- القدم التي بقيت: ٥٩
(١١)- م.ن :٣٢٣-٣٢٤
(١٢)- م.ن : ٦٨
(١٣)- ينظر : م.ن:٨٢
(١٤) - م.ن: ٢٩٥
(١٥)- م.ن: ٢٩٥.
(١٦)- القدم التي بقيت : ٢٦٧
(١٧)- م.ن: ٢٧٦
(١٨)- السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الادبي، فيليب لوجون، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤: ٢٦
(١٩)- ينظر : القدم التي بقيت: ١١٦
(٢٠)- القدم التي بقيت : ٤٤
(٢١)- م.ن :٤٤
(٢٢)- ينظر: ٣٤٧ -٣٧٨
(٢٣)- ينظر : ٢٧٦-٢٧٩.
(٢٤)- ينظر :القدم التي بقيت : ٢٨٤-٢٩٩

(٢٥)- م.ن: ٣٥٢ ومنهم عريف ابراهيم ٣٩٤
(٢٦)- م.ن: ٤٣٣
(٢٧)- م.ن: ٤٣٥
(٢٨)- م.ن: ٢٩٤
(٢٩)- م.ن: ٢٢٣
(٣٠)- القدم التي بقيت: ٢٦٧
(٣١)- ينظر : حكاية جند : ١٧
(٣٢)- الثلج الحار : ١٠٣
(٣٣)- القدم التي بقيت:١٢٢
(٣٤)- السيرة الذاتية : ٩٣
(٣٥)- القدم التي بقيت:١٢٢
(٣٦)- اللغة والكذب، هرالد فاينرش، تعريب أ.د. عبد الرزاق بنور، كنوز للمعرفة، عمان، ٢٠١٥ : ٤٧.
(٣٧)- مقدمة مذكرات القدم التي بقيت
(٣٨)- ينظر : المتخيل المختلف . دراسات تأويلية في الرواية العربية المعاصرة ، محمد معتصم ، منشورات ضفاف ، منشورات الاختلاف ، دار الامان ، الرباط ، ٢٠١٤ : ١٤١-١٥٤ .
(٣٩)- معجم النقد الادبي ، ترجمة وتحرير كامل عويد العامري ، دار المأمون ، بغداد ، ٢٠١٣ : ٢٤٩. (٤٠)- ينظر : م.ن : ٢٤٩
(٤١)- م.ن :٢٧١
(٤٢)- اللغة والكذب :١٤٦
(٤٣)- ينظر : حكاية الجند : ٧
(٤٤)- الاخلاقيات والحرب ، هل يمكن ان تكون الحرب عادلة في القرن الحادي والعشرين ؟ ، ديفيد فيشر ، ترجمة أ.د عماد عواد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، سسلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ٢٠١٤: ١٧٢.
(٤٥)- الاخلاقيات والحرب : ١٧٠
(٤٦)- الاخلاقيات والحرب : ١٧٣ ينظر على سبيل المثال موقف سيد ناصر في طريقة اجابته عن اسئلة المقدم ص٣٤٦-٣٤٨.
(٤٧)- القدم التي بقيت : ٥٥٥
(٤٨)- ينظر م.ن : ٥٨ ، ٥٩
(٤٩)- القدم التي بقيت : ٢٥٠
(٥٠)- م.ن:٦٦٦
(٥١)- م.ن:٦٦٥-٦٦٦.
(٥٢)- تاريخ روحي ، سليم مطر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٥ : ١٧٩ .
(٥٣)- حرب العاجز، سيرة عائد، سيرة بلد ، زهير الجزائري ، مكتبة الفكر الجديد، دار الساقي، ٢٠٠٩ :٣٥١

مصادر البحث

- الاخلاقيات والحرب ، هل يمكن ان تكون الحرب عادلة في القرن الحادي والعشرين ؟ ، ديفيد فيشر ، ترجمة أ.د عماد عواد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، سسلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ٢٠١٤.
- تاريخ روحي ، سليم مطر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٥
- الثلج الحار، يوري بونداريف، ترجمة غائب طعمه فرمان، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٤
- حرب العاجز ، سيرة عائد ، سيرة بلد ، زهير الجزائري ، مكتبة الفكر الجديد ، دار الساقي ، ٢٠٠٩
- حكاية الجند، الحرب والذاكرة والمذكرات في القرن العشرين، صموئيل هاينز، ترجمة فلاح رحيم، دار التنوير للنشر، جامعة الكوفة، العراق، ٢٠١٥

- السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الادبي، فيليب لوجون، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤.
- صورة الانا والاخر في السرد، د. محمد الداهي، دار رؤية، القاهرة، ٢٠١٣
- فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، يمنى العيد، دار الاداب – بيروت، ١٩٨٨
- القدم التي بقيت، سيد ناصر حسني في معتقلات البعث السرية، تعريب كمال السيد، مؤسسة انوار الرسول الاعظم (ص) ، الجمهورية الاسلامية الايرانية ، ٢٠١٠.
- اللغة والكذب، هرالد فاينرش، تعريب أ.د. عبد الرزاق بنور، كنوز للمعرفة، عمان، ٢٠١٥
- المتخيل المختلف . دراسات تأويلية في الرواية العربية المعاصرة ، محمد معتصم ، منشورات ضفاف ، منشورات الاختلاف ، دار الامان، الرباط ، ٢٠١٤ .
- معجم النقد الادبي ، ترجمة وتحرير كامل عويد العامري ، دار المأمون ، بغداد ، ٢٠١٣ .